الفصل الأول

عوامل و أسباب إقامة الأجانب في مصر

- **الوجود الأجنبي في مصر قبل العصر المملوكي.**
- **العوامل الداخلية :** (قوة الدولة المملوكية – عوامل النمو والازدهار الداخلي – توفر عنصر الأمان – حسن معاملة الأجانب).
- **العوامل الخارجية :** (مدى استقرار الأحوال على طرق التجارة البرية والبحرية في أوربا وأفريقيا وآسيا - طبيعة العلاقات السياسية بين القوة الدولية المعاصرة وبروز قوى جديدة - ضعف السيطرة البابوية على أوربا – عدم قدرة الأوربيين على السفر برا أو بحرا إلى آسيا أو أفريقيا وحاجتهم إلى وساطة المماليك).
- **العوامل العسكرية.**
- **العوامل الاجتماعية.**

الوجود الأجنبي في مصر قبل العصر المملوكي :

شهدت مصر قبل العصر المملوكي وجودا أجنبياً واضحاً في البلاد وكان ذلك راجعاً إلى قوتها الاقتصادية، وسيطرتها على التجارة الشرقية التي لا تستغني عنها الدول الأجنبية، وإلى استعداد الحكام الفاطميين لفتح البلاد وزيادة الارتباط مع الدول الأوربية والآسيوية والإفريقية حيث كان التسامح الديني الذي أبداه بعض الحكام الفاطميون فرصة حسنة استغلها الكثيرون للوفود إلى الديار المصرية، كما شجع السلطان صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية الأجانب للقدوم إلى مصر وحذا حذوه من جاء بعده من ملوك بني أيوب.

ومما لا شك فيه أن الأجانب أقاموا في مصر بأعداد كبيرة وخاصة الجاليات الأوربية التجارية التي اهتمت بالتجارة مع مصر، وأصبح الدافع التجاري يمثل السبب الأساسي لوجودهم في مصر، ولذا حرصت الدول الأجنبية على تحقيق هذا الدافع فوجدناها تعقد الصفقات التجارية مع حكام مصر وسعت دائما لإرضائهم للحصول على امتيازات متعددة تسمح من خلالها بإقامة رعاياها في البلاد المصرية بشكل منظم ودائم إلى حد ما[١٢]

وقد ذكر بنيامين التطيلى الذي زار مصر في بداية عصر صلاح الدين الأيوبي أنه رأى في الإسكندرية تجاراً من ثمانية وعشرين بلداً أجنبياً من جنسيات متعددة أهمها الجمهوريات الإيطالية (جنوة- بيزا –البندقية- ونابولي – بالرمو- أمالفي) وأرمينية الصغرى وصقلية وأسبانيا والبرتغال وبيزنطة وغيرها من الدول الأخرى[١٣].

وأوضح بهذه المناسبة أنه في شتاء سنة ١١٨٧م/١١٨٨م كان بميناء الإسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الدول الأوربية على أن هذا العدد

([١٢]) راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين (دار النهضة، ١٩٤٨م)، ص٢١٧-٢١٩ ؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية (دار النهضة،١٩٥٨م)، ص٦١١ ؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى (ترجمة أحمد رضا، عز الدين فودة ، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩١م)، ج٢، ص٤٠.

([١٣]) بنامين التطيلى، رحلة بنيامين (ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م)، ص٩-١٠.

ليس قاطعا لأن غالبية التجار الأجانب كانوا يفضلون ممارسة أعمالهم في مصر في الفصول الملائمة وهي الربيع والصيف والخريف، أما الشتاء فكانوا يرغبون في البقاء في بلادهم[١٤].

وقد أدى استمرار التواجد الأجنبي في البلاد المصرية إلى إقامة الفنادق في الموانئ والثغور المصرية لسكنى الأجانب بها وبذلك حافظت الجاليات الأوربية التجارية على تجارتها وقوتها الاقتصادية وتعاملاتها مع مصر[١٥]، وقد عاشوا في فنادق وضعتها السلطات المصرية تحت تصرفهم حيث كان للبنادقة فندق واحد حتى مستهل القرن الثالث عشر الميلادي في الإسكندرية ولكن الملك العادل الأيوبي منحهم فندقاً آخر، كما كان للبيازنة فندقان أيام الفاطميين أحدهما في الإسكندرية والآخر في القاهرة، أما الجنوية فقد كان لهم فندق واحد فقط في الإسكندرية وقد خصص لكل جالية أجنبية فندق يقيمون فيه [١٦].

ساهمت الحروب الصليبية الموجهة على الشرق الإسلامي في استمرار الوجود الأجنبي في مصر حيث إنها قد أعطت الفرصة للأجانب لتحقيق الربح المادي والمزيد من الاحتكاك المباشر مع مصر ولذا أصبح تقدم الحملات الصليبية مرتبطا بازدهار التجارة الأجنبية[١٧].

وظهر هذا التأثير واضحا بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى حيث استطاعت

---

(١٤) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص٤٩.

(١٥) آشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط في العصور الوسطى (ترجمة عبد الهادى عيلة، دمشق، ١٩٨٥م)، ص٢٤٥ ؛ James Westfall Thompson , Economic and social history in the middle ages ,(NewYork , 1959) , vol.1 , p. 436.

(١٦) عادل سليمان زيتون ، النشاط التجاري للمدن الإيطالية في البحر المتوسط (دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة،١٩٧٨م)، ص٢٩٠.

(١٧) نقولا زيادة ، رواد الشرق العربى في العصور الوسطى (القاهرة،١٩٤٣م)، ص٤٠ ؛ هنرى بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ترجمة عطية القوصى، الهيئة العامة،١٩٩٦م)، ص٣٥ ؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب (ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة ١٩٩٠م)، ص١٥٨.

الجمهوريات الإيطالية أن يكون لها وضع ومركز ثابت في موانئ الشرق فأسست الفنادق والأحياء التجارية الخاصة بها في مقابل تقديم المؤن والسلاح نقل الفرسان الصليبيين إلى بلاد الشام[١٨] وسرعان ما أدركت بقية الدول الأجنبية أهمية الحروب الصليبية اقتصاديا فسارع تجار مارسيليا وأسبانيا والبرتغال بتقديم المساعدات العسكرية للصليبيين في مقابل السماح لهم بإنشاء مراكز تجارية في بلاد الشام والإقامة بها والاستفادة من التجارة مع الشرق[١٩].

وعلى الرغم من تكرار صدور أوامر البابا بمنع التجارة مع المسلمين ألا أنها لم تتوقف كليا إذ لم يكن إلا أقلية من التجار حافظوا على ما يربطهم بالمسيحية وبالكنيسة بدليل وجود ثلاثة آلاف تاجر أجنبي اجتازوا الإسكندرية وصار يتردد على ميناء دمياط سفن من أبوليا والبندقية وبلاد اليونان وأرمينية وسوريا[٢٠]، وهذا معناه أن الدافع الاقتصادي أثر بشكل واضح في العلاقات بين الدول الأجنبية ومصر.

وفي الوقت الذي كانت فيه المنطقة العربية تقاوم الهجوم الصليبي كانت الدول الأوربية التجارية تلعب دورا مزدوجا، بمعنى أنها كانت تمد السلاطين الأيوبيين بالأخشاب والسلاح والحديد وأدوات الحرب وتعقد معهم الصفقات التجارية وفي نفس الوقت تقدم سفنها لنقل المحاربين الصليبيين إلى الشرق[٢١].

وعلى الرغم من استمرار الحملات الصليبية على مصر واشتراك التجار

([18])Clive Day A History of commerce, (London, 1970) , p. 90.

([١٩]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية (الأنجلو المصرية،١٩٦٣م)، ج٢،ص١٢٦٢ ؛ هايد، المرجع السابق،ج٢، ص٢٢-٢٥.

Sidney Painter, A History of the middle ages , (New York , 1954), p. 222.

([20]) Wiet. G , L'Egypte Arabe (Histoire de la nation Egyptienne),(Pairs , 1937),

tome IV, p. 382.

([٢١]) أحمد دراج " الوثائق العربية المحفوظة في الأرشيف الأوربي "، (أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، (القاهرة، ١٩٧٠م)، ج١، ص١٢٤ ؛ عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب (دار النهضة، ١٩٨٣م)، ص٢٠-٣٥ ؛

Pirene Henri ,Economic and Social History of medieval Europe,(London,1936), P.39.

الأجانب فيها وفشلها في تحقيق هدفها العسكري فإن ذلك لم يؤثر على علاقتهم بمصر ولم يؤثر كذلك على تواجدهم في الديار المصرية [٢٢]، وليس أدل على ذلك من أن السلطات الحاكمة في مصر قد سمحت للأجانب سواء كانوا تجارا أو سفراء أو رحالة وغيرهم بالإقامة في فنادق مخصصة لهم وأصبح لكل جالية أجنبية فندق خاص بها وفي العادة كانوا يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على مسألة الإقامة في الفندق وإدارته وحماية سكانه والعمل على راحتهم[٢٣].

وقد سمح السلاطين للأجانب بالإقامة في الثغور والمدن الساحلية مثل رشيد ودمياط والإسكندرية والبرلس وغيرها من المدن المصرية التجارية الهامة في حين لم تسمح لهم بالإقامة أو التواجد الدائم في القاهرة فعندما حاول البيازنة الحصول من السلطان صلاح الدين الأيوبي على تصريح ببناء فندق لهم في القاهرة - كما كان موجودا أيام الفاطميين - إلا أنه لم يجب عليهم بالقبول أو بالرفض، ولم يحدث بعد ذلك أن أقام الأجانب في القاهرة بصفة أساسية [٢٤].

وكما ساهمت الحروب الصليبية في نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فإنها ساهمت أيضا في توتر العلاقات بين المصريين والأجانب ففي عام ٦٠٨هـ/١٢١١م كثر أعداد الأجانب في الإسكندرية ولكنهم قد أثاروا الشغب في المدينة مما أقلق أحد السلاطين الأيوبيين فقام بالقبض عليهم وحبسهم في سجن القلعة بالقاهرة[٢٥].

([٢٢]) جوزيف نسيم، العدوان الصليبى على مصر (الإسكندرية، ١٩٦٩م)، ص٦١ ؛ مصطفي حسن الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (الإسكندرية ،١٩٨١م)،ص٧٩ ؛ عادل زيتون، المرجع السابق، ص٢٥٨؛ Clive Day , op. Cit, p. 98.

([٢٣]) أحمد فؤاد السيد، تاريخ الأيوبيين في مصر الإسلامية (دار النهضة المصرية، ١٩٩٦م)، ص٣٥٥- ٣٦٠ ؛ أحمد زكى، " صفحة من تاريخ التجارة المصرية " (مجلة المقتطف، القاهرة،١٩١٧ م)، ص٢٢٠ –٢٢١ ؛ فايد حماد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى في العصر الأيوبى ، (دار المعارف، ١٩٨٠م)، ص٢٥٢- ٢٥٣، إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار (القاهرة، ١٣١٤هـ)،ج٣،ص٠٩٠

([٢٤]) هايد، المرجع السابق،ح٣،ص٣٧.

([٢٥]) تقي الدين أحمد بن على المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفي زيادة،دار الكتب،١٩٣٦م) ،ح١ق١،ص١٧٥.

وثمة حقيقية هامة أكدها صلاح الدين الأيوبي في خطابه المرسل إلى الخليفة العباسي وهي الدور المزدوج الذي لعبته الجاليات الأجنبية في علاقتها بمصر ومؤكد على استمرار التواجد الأجنبي بها لأسباب متعددة حيث قال في خطابه: (ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبيازنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارًا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلادنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسألة على ما تريد ويكرهون، وعلى ما تؤثرهم لا يؤثرون)[٢٦].

وقد كثرت أعداد الأسرى الأجانب من جنسيات متعددة منذ أيام صلاح الدين الأيوبي نتيجة لحروبه مع الصليبين في بلاد الشام حيث ذكر لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في تلك الأيام أنه رأى أعداداً هائلة من أسرى الفرنجة تشارك في بناء سور القاهرة وقلعة الجبل [٢٧].

وكذلك ما حدث في عام ٥٧٥هـ حينما هاجم السلطان الأيوبي الصليبين في بانياس وأسر عدداً كثيراً وكان منهم مقدم الداوية ومقدم الاستبارية وحاكم طبرية وحاكم جنين ويافا وعددا كثيرا من الفرسان والبارونات وغيرهم من القواد ما يزيد على مائتين وسبعين أسيرا فمنهم من استطاع فداء نفسه ومنهم من ظل في الأسر [٢٨]، وفي عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م قام "رينالدو دى شاتيون" – المعروف في المصادر العربية باسم أرناط الذي كان حاكماً على مدينة الكرك- بحملة بحرية على شبه الجزيرة العربية وكان هدفها الهجوم على مكة والمدينة وأخذت سفنه تغير على

([٢٦]) شهاب الدين عبد الرحمن المقدسى المعروف بأبى شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (تحقيق محمد مصطفي زيادة، محمد حلمى أحمد، القاهرة،١٩٦٢م)، ج١ق٢، ص٦٢١-٦٢٢.

([٢٧]) عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادى في مصر أو المسماة بالإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر (تحقيق أحمد غسان، دار ابن زيدون، بيروت ١٩٨٤م)، ص٧٢.

([٢٨]) أبو شامة، المصدر السابق،ح٢، ص٨-٩ ؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نهاية الإرب في فنون الأدب (تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة،١٩٩٣م)، ج٢٨، ص٣٩٤-٣٩٥.

الموانئ المصرية الصغيرة في البحر الأحمر حتى استولوا على مراكب مصر في بحر عيذاب (البحر الأحمر) استطاع الأسطول المصري هزيمتهم و أسرهم وأرسل الملك العادل الأيوبي – الذي كان نائبا عن أخيه صلاح الدين في مصر أثناء سفره إلى بلاد الشام – بعضهم إلى مكة لذبحهم عقوبة لهم على قصدهم البيت الحرام ثم عاد إلى القاهرة ومعه بقية الأسرى [٢٩].

وأما الدولة البيزنطية فقد تأثرت علاقاتها بمصر بكثير من الاعتبارات السياسية والاقتصادية ونقصد بالسياسية هي تلك الحروب التي نشبت بين الدولتين في البر والبحر في العصر الفاطمي والتي أدت إلى توتر العلاقات بين الدولتين في أحيان كثيرة وبالتالي أ ثر هذا على وضع الجاليات الرومية في مصر، أما عن الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت القسطنطينية في موقع جغرافي هام فهي تقع على الطرق التي تربط قارتي آسيا و أوربا مما جعل من السهل أن تصل إليها الغلات من وسط آسيا وشرقها بالطريق البرى، فهي إذن لم تكن في حاجة للاعتماد على مصر أو الشام لتزويدها بهذه الغلات[٣٠]، ولكن هذه الاعتبارات لم توقف العلاقات بين الدولتين تماما إذ كانت بيزنطة في حاجة إلى بعض المصنوعات الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ودمياط [٣١]، كما اهتمت مصر بتحسين علاقاتها مع بيزنطة حتى تحصل على الفراء وغيرها من غلات البلاد الواقعة بجوار البحر الأسود حيث ذكر لنا ناصر خسرو أنه رأى كثيراً من السلع البيزنطية في أسواق مصر[٣٢]. واستمرت هذه العلاقة خلال العصر الأيوبي.

ومثلما كان هناك في القسطنطينية جاليات مسلمة فقد كان هناك في مصر جالية رومية استقرت فيها قبل الفتح الإسلامي لمصر ثم خصص لهم القائد المسلم عمرو بن العاص منطقة للإقامة فيها سميت بالحمروات فأقاموا بها كنيسة سميت بكنيسة

([٢٩]) أبو شامة، نفسه، ص ٣٦ – ٣٧ ؛ النويرى، نفسه، ص ٣٩٧ ؛ أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى، رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م)، ص ٣٥.

([30])Cambridge Medieval history, (London, 1939), vol , IV , p. 701.

([٣١]) هايد، المرجع السابق، ح٢، ص٨٣-٨٥.

([٣٢]) ناصر خسرو، رحلة سفر نامة (تعريب يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م) ، ص٦٢.

الحمروات ومع قيام الدولة الفاطمية بمصر وفدت عناصر رومية أخرى إلى مصر، و استقرت فيها وعاشوا في حارة الروم طوال العصر الفاطمي والأيوبي ثم دخل كثير من الروم في الإسلام واندمجوا في المجتمع المصري[٣٣].

نشأت مملكة أرمينية الصغرى في أواخر القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي في إقليم قليقيا أي في الركن الجنوبي الشرقي في آسيا الصغرى وقد تعرضت أرمينية لغزوات متعددة من قبل البيزنطيين والمسلمين نظرا لموقعها الاستراتيجي الهام ولذا اضطر الأرمن للهجرة إلى جهات متعددة وكانت مصر أهم هذه الجهات، حيث استعان بهم الخلفاء الفاطميون في الإدارة مثل : الوزير بدر الدين الجمالى الذي كان له الفضل الأول في وفود أعداد كبيرة من الأرمن إلى مصر [٣٤]، واتسع نفوذ الأرمن وقويت سلطتهم وازداد نشاطهم في مجالات السياسة والإدارة الحربية والعلمية والعمرانية مثل الأمير المظفر رئيس ديوان الأفضل فاساك حاكم قوص وأبو منصور كُستا حاكم الإسكندرية والقائد تاج الدولة قلماز وغيرهم [٣٥].

وتشير المصادر المعاصرة إلي تدفق الأرمن إلي مصر بفضل الوزير بهرام الأرمني حيث وصل عددهم في الجيش الفاطمي إلي عشرين ألفاً معفون من الجزية، كما سعى لإحضار أخوته وأهله من تل باشر وولاهم وظائف عليا في الدولة [٣٦]، ولكن العامة ثاروا علية فاضطر للهرب إلي الصعيد فاستغل العامة هذه الفرصة وقاموا بعمليات نهب وسلب مساكن الأرمن وحاراتهم وكنيسة الزهري كبرى كنائس الأرمن في مصر [٣٧].

([٣٣]) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (الهيئة العامة، ١٩٧٠ م)، ج٤، ص٤٢ ؛ أبو صالح الأرمني، تاريخ كنائس وأديرة مصر (باريس، ١٨٠٩م) ، ص٣٨ ؛ المقريزي،الخطط المقريزية (نشر كلية الآداب، القاهرة،١٩٩٦م)، ج ٤، ص٤٢٥.

([٣٤]) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين (تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧١م) ج٢، ص١٣٩ ؛ مروان المدور،الأرمن عبر العصور التاريخية (بيروت، ١٩٨٢م)، ص٦٨-٦٩؛ أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية، (القاهرة ١٩٠٦،ص٥٠).

([٣٥]) سهام مصطفي أبو زيد،تاريخ الأرمن في مصر، (القاهرة ١٩٩١ م) ص ٣٣-٤٩.

([٣٦]) تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن ميسر، أخبار مصر (تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة،١٩٨١م)، ج١، ص١٢٤؛ النويري، نهاية الإرب،ج٢٨، ص٣٠١.

([٣٧]) ابن ميسر، نفسه، ص١٢٥ ؛ النويري، نفسه،ص٣٠٢.

وفي عهد الدولة الأيوبية وبعد ما استطاع صلاح الدين أن يقضى على الأخطار الداخلية عاد الأرمن للإقامة والسكنى في القاهرة وظلوا على ديانتهم ولم يتعرض لهم أحد بالأذى أو بالظلم [٣٨] وقد عبر عن ذلك أبو صالح الأرمني حيث أكد أن الأرمن كانوا يمارسون حياتهم الدينية بحرية تامة في كنيسة الطاهرة بحارة زويلة وكنيسة يوحنا المعمدان[٣٩] ولكن ما لبث أن ثار الأرمن اتفاقا مع العبيد السود لأحياء الخلافة الفاطمية مما أثار غضب صلاح الدين الأيوبي فأمر بإشعال النار في منازلهم وقبض على الثوار، وأخذ منهم كنيسة الزهرى وكنيسة البستان وأعطاهما للقبط مما أدى إلي قلة أعداد الأرمن في ذلك الوقت[٤٠]، وعندما هدأت الأحوال شهدت القاهرة مجيء العديد من الأرمن الذين عاشوا فيها حيث وصلها أسقف وثلاثة قساوسة نزلوا بكنيسة يوحنا المعمدان، كما وفد في عام ٥٨١هـ /١١٨٥م طائفة أخرى من الأرمن ورحب بهم السلطان العادل الأيوبي، وأعاد إليهم أموالهم وكنائسهم [٤١].

وفدت إلى مصر جالية أجنبية أخرى وهي من العبيد السود فقد كانت مملكة النوبة المسيحية تدين بالطاعة والولاء لحكام مصر منذ الفتح الإسلامي وفقا لاتفاقية البقط [٤٢] والتي نصت على طاعة ملوك النوبة لمصر، وتقديم عدد من الرقيق إلى الأسواق المصرية[٤٣]، وبهذا فقد فتحت معاهدة البقط الباب على مصراعيه أمام تواجد الرقيق السود في مصر ولكن هذا ليس معناه أن الرقيق السود كانوا من بلاد النوبة بل كانوا يجلبون من المساحة الواسعة المترامية الأطراف في داخل السودان

([٣٨]) أبو شامة، المصدر السابق،ج١ ق٢، ص٦١٨.

([٣٩]) أبو صالح الأرمني، المصدر السابق، ص٥.

([٤٠]) نفسه، ص٧ ؛ أبو شامة، المصدر السابق، ص٤٩٨-٥٦١.

([٤١]) أبو صالح الأرمنى، نفسه، ص ٨-٩.

([٤٢]) كلمة البقط : قال المقريزى : بأنها كلمة عربية تعنى ما يقبض من سبى النوبة وما يؤخذ من الأرض من بقول وأعشاب، انظر الخطط، ج١، ص٣٢٢، ويذكر آخر أنها ليست عربية وتسمى Baqt , وتعنى الضريبة وربما تكون كلمة لاتينية Pactum بمعنى العهد أو الميثاق، انظر
Holt. P..M, the History of Sudan from the coming of Islam to the present day, (London , 19 73) ,P.15

([٤٣]) المقريزى، نفسه، ص٣٢٣.

وذلك لأن النوبة المعروفة بقلة سكانها لم يكن بوسعها أن تمد مصر بأعداد كبيرة من العبيد على حساب سكانها، وبهذا فالمكان الأصلي الذي يجلب منه الرقيق غير معروف على وجه الدقة ويرجع السبب إلى أن كلمتي النوبة والسودان متداخلتين تقريبا واستخدمتا في المصادر الإسلامية بصورة غير محددة.

ففي العصر الفاطمي حرص الخلفاء الفاطميون على اقتناء العبيد السود ومن منطلق ذلك أرسل جوهر الصقلي مبعوثا إلى ملك النوبة يطالبه بدفع الجزية المقررة علية من العبيد السود الذين انضموا في سلك الجندية والإدارة [٤٤]، ثم أصبح العبيد السود أهم العناصر العسكرية في الجيش الفاطمي حيث استكثر منهم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي وذلك رغبة منه للحد من نفوذ الأتراك والصقالبة، وكذلك مال الخليفة المستنصر الفاطمي إلى العبيد السود وظل ذلك العنصر أساس تكوين الجيش الفاطمي وقوة الدولة الفاطمية حتى نهاية العصر الفاطمي[٤٥]، وبحكم صلة الجوار أيضا فقد استقرت بعض العناصر النوبية في الصعيد الأعلى بالإضافة إلى الترابط التجاري بين مصر والنوبة حيث اعتاد التجار النوبيون على نقل بضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان وأحيانا ما يسافر التجار المصريون إليها[٤٦].

ومع قيام الدولة الأيوبية وجد صلاح الدين أن العبيد السود يثيرون الشغب ويتحالفون مع العناصر الأخرى في الدولة لإعادة الحكم الفاطمي في مصر فعمل على استئصال شأفتهم نهائيا من البلاد وأزال الجيش الفاطمي بكل عناصره وأهمهما العنصر النوبي[٤٧]، مما أدى إلى قلة العنصر النوبي في مصر ولم يقتصر الأمر على ذلك بل سارع صلاح الدين الأيوبي بفرض السيطرة المصرية على بلاد النوبة عدة

([٤٤]) مصطفي محمد سعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ،(الأنجلو المصرية،١٩٦٠م)، ص١٣٩.

([٤٥]) أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى (الإسكندرية، ١٩٨٢م)، ص٦٨ – ٦٩.

([٤٦]) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص٧٠-٧٢.

([٤٧]) النويرى،المصدر السابق،ج٢٨،ص ٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٩؛ جمال الدين أبو عبد الله ابن سليم ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب (تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م)،ج١، ص١٢٦، ١٧٧؛ ناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك (تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، ١٩٦٧م) ج١، م٤، ص٦٧، ٨٢.

مرات فحاول شن حملات قوية على أهم قلاعها حفاظا على حدود مصر الجنوبية وعلى حماية ميناء عيذاب الذي يعد المنفذ التجاري الهام لمصر[٤٨].

العوامل الداخلية في مصر المملوكية

تمثل العوامل والظروف الداخلية في أية دولة عاملاً ذا أهمية لوفود الأجانب إليها فعندما تستقر الأوضاع الداخلية يتحقق الأمن مما يشجع العنصر الأجنبي على التعامل مع هذه الدول بحرية وأمان.

قامت الدولة المملوكية استجابة لظروف سياسية وعسكرية في العالم الإسلامي جعلت المماليك يثبتون قدرتهم وتفوقهم العسكري، وهذا ما حققه السلطان الظاهر بيرس البندقدارى الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية حيث بدأ عهده بتنظيم أحوال دولته داخليًّا وكانت أولى خطواته في ذلك هي إلغاء الضرائب التي فرضها السلطان المظفر قطز لتمويل حربه ضد المغول[٤٩]، ويبدو أن حكم السلطان الظاهر بيبرس قد أثار غيرة بعض الأمراء الآخرين مما أدى إلى نشوب ثورات ضده ففي أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ثار سنجر الحلبي بدمشق وأعلن تمرده وعصيانه ولكن الظاهر بيبرس استطاع التخلص منه والقضاء على ثورته[٥٠]، ثم حاول شمس الدين البرلى الاستقلال بحلب ولكنه فشل وطلب العفو والأمان من السلطان [٥١]، وما لبث أن قامت ثورة شيعية في القاهرة بزعامة رجل شيعي يدعى الكوراني أدت إلى إثارة القلاقل والتوتر فاستطاع الظاهر بيبرس التخلص منه، وهدأت الأحوال وتوفر عنصر الأمن والاستقرار في البلاد [٥٢].

أما الخطوة التالية في أعماله فكانت إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها على

([٤٨]) أبو شامة، المصدرالسابق، ص٢٠٩.

([٤٩]) المقريزي، السلوك، ج١ق٢،ص٤٣٨-٤٣٩؛ ابن تغرى بردى،المصدر السابق ،ج٧،ص١٠٣.

([٥٠]) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار،الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية،ج٨ من كنزر الدر وجامع الغرر (تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة،١٩٧١م)، ص٦٣-٦٤،٦٩-٧٠ ؛ محيى الدين بن عبد الظاهر،الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر،الرياض ١٩٩٢م)، ص٩٤-٩٥.

([٥١]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٤٦٥ –٤٦٦، ٤٧١ – ٤٧٦.

([٥٢]) نفسه، ص ٤٤٠.

أيدي المغول في بغداد وذلك لإضفاء الصفة الشرعية لحكم هؤلاء المماليك العبيد حيث قام الظاهر بيبرس باستدعاء آخر أمير عباسي إلى القاهرة، ومبايعته بالخلافة ثم قام هو بدوره بتفويض الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية [٥٣]، وهكذا صارت مصر مركز المنطقة العربية، كما نالت الدولة المملوكية الصفة الدينية والسياسية وصارت القاهرة حصن الأمان ومعقل الحضارة الإسلامية، وسار السلاطين المماليك على نفس الأسس والمبادئ حيث استطاع من جاء بعد الظاهر بيبرس تحقيق الأمن والاستقرار الداخلي والضرب على أيدي الثوار والعابثين في الديار المصرية [٥٤].

لا شك أن استقرار الأمن الداخلي ساهم في تشجيع التجارة الداخلية، وفي ازدهار الاقتصاد المصري سواء كان زراعيا أو صناعيا أو تجاريا، ولعل أشد ما حرص عليه حكام مصر طوال العصر المملوكي هو حماية التجارة الداخلية وتأمين طرقها والاهتمام بوصول البضائع الشرقية إلى موانئ البحر الأحمر تمهيدا لنقلها إلى موانئ البحر المتوسط خاصة بعد أن تدهورت الطرق التجارية البرية في وسط آسيا بسبب الغزو المغولي لآسيا فأصبح طريق البحر الأحمر أكثر الطرق أهمية وأكثر أمانا[٥٥].

وعندما أصبح طريق البحر الأحمر الطريق الأساسي للتجارة المصرية عمل السلاطين المماليك على حمايته والضرب على أيدي المعتدين على القوافل التجارية والمسافرين وفرض السيطرة المملوكية على الطريق، حيث قام السلطان الظاهر بيبرس بالاستيلاء على ميناء سواكن سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م المطل على مملكة النوبة

([٥٣]) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٩٩ –١٠١.

([٥٤]) ابن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد (تحقيق E.blochet باريس، ١٩٢٥م)، ج٢، ص ٤٧٩- ٤٨٣ ؛ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصرى، بدائع الزهور في وقائع الدهور(تحقيق محمد مصطفي، الهيئة العامة، ١٩٨٢م)، ج١ق١، ص ٤١٩ – ٤٢٥ ؛ ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٢٣٧ ؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٨، ص ٦٧ – ٧١.

([٥٥]) سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام (دار النهضة، ط٢، ١٩٧٦م)، ص ٢٩٨؛ نعيم زكى فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (الهيئة العامة، ١٩٧٣م)، ص ١٢٥.

المسيحية وترتب على ذلك إحكام السيطرة والرقابة على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر [٥٦]، ثم حاول ملوك النوبة الإغارة على ثغر عيذاب سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م ونهب متاجره وقتل عددا من التجار كما أغار على مدينة أسوان وأسر كثير من أهلها [٥٧]، وردا على هذا العدوان بعث السلطان حملة عسكرية بقيادة والى قوص إلى النوبة ولكنه لم يحقق نجاحا ملحوظا [٥٨]، مما دفع السلطان المملوكي لإرسال حملة أخرى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وأخضع ملكها وبسط السيطرة المملوكية على الطريق التجاري وموانيه[٥٩].

كما تعرض هذا الطريق لاعتداءات قبائل الأعراب وإثارة القلق والتوتر نتيجة للصراعات القائمة بينهم حيث اعتادوا على السلب والنهب، ويروى المقريزي أنه عندما اشتد القتال بين الأعراب في صحراء عيذاب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م أمر السلطان المنصور قلاوون حاكم سواكن بأن يوفق بين القبائل خوفا من فساد الطريق[٦٠].

كانت هناك مزايا عديدة داخل الأراضي المصرية تمثلت في الأمن والرخاء والاستقرار فقد بلغت مدينة القاهرة أوج ازدهارها في العصر المملوكي حيث زاد عدد سكانها نتيجة لفترات الهدوء والسلام بعد أن استطاع المماليك القضاء على الخطر المغولى والصليبي فأصبحت القاهرة الوطن الآمن للكثيرين [٦١]، فأدى ذلك

([٥٦]) أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكي (القاهرة، ١٩٩٩م)، ص ٢٠٢.

([٥٧]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٥٠، ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١١ ؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧ (تحقيق قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢م)، ص ٤٥ ؛ صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢م)، ص ٢٨٠.

([٥٨]) المقريزي، السلوك،ج١ ق٢، ص ٦٠٨.

([٥٩]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٦٣١ ؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر (بيروت، ١٩٦٨م)، ج٥، ص٨٦٢.

([٦٠]) المقريزى، نفسه، ج١ ق٣، ص٧٠٠.

([٦١]) محمد جمال الدين سرور، عصر بني قلاوون في مصر (دار الفكر العربى، ١٩٦٠م)، ص

أن أصبحت المدينة تموج بالحركة والنشاط وبوجود الأجانب من جميع الجنسيات وكثرت بها الأسواق والبضائع والسلع المختلفة فقال عنها المقريزي : "هي مدينة تتميز بشهرتها ويعجب الناظر لهيئتها فهي عامرة بالحوانيت خاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن الأشخاص"[٦٢].

وإذا تتبعنا ما ذكره الرحالة العرب والأجانب عنها لأدركنا مدى النمو والازدهار الذي وصلت إليه هذه المدينة حيث قيل عنها إنها بلدة عظيمة الشأن، كثيرة العمران، استوطنها أرباب الصناعات والحرف والتجار، وهي مأوى وملجأ للضعيف والقادر، وتضيق بسكانها المتنوعين في الجنس والملة والنوع [٦٣]، ومدحها الرحالة الأجانب فقد وجدوها مدينة راقية مزدهرة بثروتها وسكانها وأقسموا أنه لو أمكن ضم ميلان وروما وبادوا وفلورنسا (مدن إيطالية) وأربع مدن أخرى لما زاد سكانها وثرواتها جميعا عن نصف ما في القاهرة، كما احتوت القاهرة على فنادق كبرى، واحتوى كل فندق على ألف دكان يضع فيه الباعة والصناع والتجار والمسافرون أمتعتهم وبضائعهم [٦٤]، وهكذا كانت القاهرة محط رحال الوافدين الأجانب ومحطة تجارية هامة.

ونتيجة لانتشار الحوانيت والفنادق بها ولتدافع الناس من جنسيات مختلفة تميزت شوارعها بالضيق وكثرة الحركة بصورة غير عادية [٦٥]، ووصفها بيلوتى

---

٣٢١ ؛ قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك (دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م)، ص ٢١٩.

(٦٢) المقريزى، الخطط، ج٣، ص ١٨٥.

(٦٣) على بن سعيد المغربي، المعرب في حلى المغرب، ج٢، المسمى بالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة (تحقيق حسين نصار، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م)، ص٢٧ ؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة (تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، دار الكتب ١٩٦٩م)، ص ١٨٥ ؛ عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى المعروف بابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (طبع الأزهر الشريف، ١٩٢٨م)، ج١، ص ١٩.

(64)Adler , Jewish travelers ,(London , 1930) , p. 166 , 226.

(٦٥) جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة (ترجمة مصطفي العبادى، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٠م)، ص ١١٧، ١٢٦.

الكريتى - الذي عاش في مصر فترة طويلة – بأنها أكبر مدينة في العالم كما تحدث عن نيلها وشعبها وأراضيها وحركة التجارة والسكان بها [٦٦].

كما كانت مدينة الإسكندرية أعظم ميناء تجارى على ساحل البحر المتوسط ومحط أنظار العالم كله، وهي المدخل الأول للأجانب الوافدين إلى مصر، وتعد أهم ثغور مصر قاطبة وأكبر مركز تجارى في حوض البحر المتوسط [٦٧]، فانتشرت بها الأسواق والفنادق والخانات وكثر عمرانها واتسعت شوارعها [٦٨]، ونظرا لأهميتها حرص السلاطين المماليك على حمايتها فبنوا حولها الأسوار والأبراج، وأقاموا بها حامية عسكرية تدافع عنها[٦٩].

أما مدينة دمياط فقد تعرضت للتخريب نتيجة الهجوم الصليبي ولكن سرعان ما عادت إلى نشاطها ووفد إليها التجار الأجانب وأقيمت بها الأسواق والفنادق والخانات، وأتت إليها السفن الأجنبية من جنسيات متعددة، وحرصا على سلامتها وحمايتها أنشأت السلطات الحاكمة برجين على ساحلها بينهما سلسلة حديد ضخمة تغلق كل ليلة لتمنع عبور السفن الأجنبية إليها بدون إذن أو الدخول إلى البلاد [٧٠].

بالإضافة إلى مدينة رشيد التي تقع قرب مصب نهر النيل في البحر المتوسط والتي اكتظت بالأسواق والفنادق والحوانيت، وفيها كانت تجبى الضرائب على ما يحمل من الإسكندرية إليها، وترسوا فيها السفن الأجنبية القادمة من آسيا وأوربا [٧١].

([66])Doop.P.H, L' Egypt au commencement du quinzieme siecle (Le caire,1950),p.3–8.

([٦٧]) العُمرى، مسالك الأبصار في الممالك والأمصار (تحقيق درولوفسكى، القاهرة، ١٩٨٦م)، ج٢، ص ١٥١؛ بنيامين التطيلي، المصدر السابق، ص ١٢٢-١٢٣.

([٦٨]) خالد بن عيسى بن أحمد البلوى المغربي، رحلة البلوى(مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٠٥٣ جغرافيا)،ورقة ٣٠.

([٦٩]) العُمرى، المصدر السابق، ص ١٥٠ ؛ غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (صححه بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م) ، ص ٣٩،

Frescobaldi , The visite to Holy places (Jersulam , 1998) , p. 39.

([٧٠]) ابن شاهين، المصدر السابق، ص٣٥.

([٧١]) ابن حوقل، صورة الأرض (ليدن، ١٩٣٨م)،ص ١٣٨.

وكذلك مدينة قوص فهي أشهر مدن الصعيد شرقي النيل وتميزت بازدهارها العمراني مثل الرباع والفنادق التي يسكنها التجار والمسافرون القادمون من الهند والحبشة واليمن والحجاز[٧٢].

ويرجع نمو هذه المدن إلى استقرار الحكم واستتباب الأمن الداخلي الذي حققته الدولة مما ساعد على الازدهار الاقتصادي وساهم في تحسن أحوال الزراعة والصناعة وزيادة عوائد التجارة بالإضافة إلى حسن معاملة السلطات الحاكمة للأجانب الوافدين حيث اعتاد السلاطين المماليك على إصدار المراسيم لإغراء التجار الأجانب للوفود إلى مصر والإقامة بها [٧٣]، مؤكدين على مبدأ الحرية والأمان التام لهم وعدم تعرضهم لأي سوء أو خطر[٧٤]، وتنفيذا لتلك المبادئ حرص المماليك على تحذير نوابهم في الثغور من سوء معاملة الوافدين ويأمرونهم بحسن معاملتهم، ومراعاة العدل في جمع الضرائب [٧٥]، ويعود هذا الاهتمام بالأجانب إلى حاجة المجتمع المصري للتجار الأجانب للحصول على بعض السلع والمنتجات الأوربية وأهمها الرقيق والأسلحة والأخشاب وبدا ذلك واضحًا في نص مرسوم سلطاني جاء فيه أن السلطان "يأمر ناظر ثغر الإسكندرية بمعاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ومن ألسنتهم تطلع ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور"[٧٦].

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل حرصت السلطات المملوكية على توفير عنصر الأمان والراحة للأجانب فأنشأت الخانات المتعددة في طول البلاد وعرضها

([٧٢]) العمري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٧.

([٧٣]) شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، ١٩١٨م)، ج١٣، ص ٣٤٠ – ٣٤١.

([٧٤]) نفسه، ج١٤، ص ٤١، ٦٩ ؛ شافع بن على الكاتب العسقلاني، الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور (تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، ١٩٩٨م)، ص ١٧٤؛ الطاهر أحمد مكي،" معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر " (مجلة المجلة العدد ٤٥، سبتمبر ١٩٦٠م)، ص٥٥.

([٧٥]) شافع بن على، نفسه، ص ١٢٣ ؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧، ص ١٩٨ ؛ المقريزي، السلوك، ج٢ق٣، ص ٦٧٠.

([٧٦]) القلقشندى، المصدر السابق، ج١١، ص ٤٢١.

مجهزة بالمؤن والطعام والشراب وغرف النوم لراحة المسافرين القادمين من النوبة والهند والحبشة وبلاد السودان [٧٧]، كما خصصت فنادق للأجانب الأوربيين في الثغور المصرية [٧٨] ، وقد بلغ تسامح وحسن معاملة الأجانب مداه في حالات الهدوء والاستقرار السياسي بين الدول الأجنبية وبين مصر في حالة تضاؤل خوف المماليك من القوى الأجنبية ولكن عندما تتوفر العلاقات كان ذلك يؤثر بالسلب على الوجود الأجنبي في البلاد المصرية [٧٩].

العوامل الخارجية :

كان للعوامل الخارجية أثرٌ واضحٌ في قدوم الأجانب إلى مصر من جنسيات مختلفة وأهم هذه العوامل هو مدى استقرار الأحوال على طرق التجارة البرية والبحرية في آسيا وأفريقيا وأوربا " فقد كان الطريق المعتاد لسلع الشرق الأقصى إلى ساحل البحر المتوسط هو الطريق البحري من موانئ الصين مارا بالهند ثم الخليج العربي لتصل إلى البصرة ثم تصعد نهر دجلة إلى بغداد فالموصل لتحملها القوافل إلى حلب أو دمشق، ومنها إلى موانئ الساحل الشمالي في طرابلس وبيروت وغيرهما من الموانئ [٨٠] في انتظار السفن لنقلها إلى بلدان أوربا بينما يتجه فرع آخر شمالا إلى ديار بكر فأرمينيا ثم القسطنطينية مستودع سلع الشرق والغرب والشمال والجنوب معًا ومن العاصمة البيزنطية توزع على جميع أنحاء أوربا [٨١]، وكان هناك طريق أخر غير الخليج العربي وهو طريق البحر الأحمر ثم الموانئ المصرية كعيذاب والقصير ومنها تنقل البضائع بالقوافل إلى قوص على نهر النيل

---

(٧٧) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج١، ص ٣١ ؛ ابن جبير، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٧٨) بنامين التطيلى، المصدر السابق، ص ١١ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٠٤.

(79)Atiya (A. S) , The latter crusades in the latter ages ,(London , 1938) , p. 181.

(٨٠) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ؛ عزيز سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.

(٨١) عزيز سوريال، نفسه؛ Lopez and Raymond , Medieval trade in Mediterranean world ,

(New York, 1955) , p. 31. 32.

لتصل القاهرة وأحيانا كانت تصل أقصى شمال خليج السويس عند القلزم ومن تلك المدينة تنقل بالقوافل إلى القاهرة ومنها عبر فرع رشيد ثم الإسكندرية أو فرع دمياط [٨٢]، حيث تنقلها السفن إلى أوربا وبلدان شمال أفريقيا وهناك فرع أخر يتجه شمالا إلى موانئ الشام.

ولكن بعد سقوط عكا أخر معاقل الصليبين على ساحل الشام في أيدي المماليك فرضت البابوية حربا اقتصادية على مصر، ومنعت السفن المسيحية من الاتجاه إلى الثغور المملوكية في مصر والشام وكلفت فرسان الداوية بمراقبة تنفيذ هذه المقاطعة وأسر أي سفينة تخالف تلك الأوامر [٨٣]، لذلك بحث الغرب المسيحي عن طريق جديد لاتصاله بالشرق الأقصى بعيدا عن أراضى الدولة المملوكية وحاول تدعيم الطريق البرى من أوربا إلى فارس والهند المار ببلاد الدولة البيزنطية[٨٤]. ولكن يبدوا أن معظم التجار كانوا يفضلون الطرق البحرية.

ونظرًا للاضطرابات التي تعرضت لها مناطق وسط آسيا وفارس والعراق والشام وأسيا الصغرى منذ القرن الثالث عشر الميلادي – القرن السابع الهجري بسبب ظهور المغول في آسيا، وامتداد نفوذهم في المنطقة وإقامة إمبراطورية عظيمة على حساب الشعوب الآسيوية وقيامهم بتدمير الطرق التجارية البرية القديمة بين الصين من جهة وأسيا الصغرى من جهة أخرى فأصبحت غير آمنة وغير صالحة للسفر وعمتها الفوضى والاضطراب[٨٥]، وهذا ما أكده الرحالة ماركو بولو وأشار

([٨٢]) عزيز سوريال، نفسه ؛ Ibid , p. 32

([83])Thompson , j. w , History of the middle ages ,(London , 1931) , p. 29.

([٨٤]) نعيم زكى فهمي، المرجع السابق، ص ١١٧ ؛ وتنفيذا لأوامر البابوية تعاونت بعض الدول الأجنبية مع المغول لتحويل طريق التجارة إلى الخليج الفارسى وذلك بإرسال بعض السفن عبر الخليج الفارسى إلى المحيط لفرض حصار على عدن واعتراض السفن وإجبارها على الدخول في الخليج وهكذا يتم قطع الطريق المصرى إلى الهند عبر البحر الأحمر ولكن هذا الطريق لم يكن سهلا ولم يحقق الربح المطلوب نظرا لطول المسافة وتدخل السلطات المملوكية لحماية طرقها وجذب الأجانب إليها.

([٨٥]) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩٩ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٩٧ ؛ جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر اسكندر، القاهرة، ب.ت)، ص ٨٠.

إلى عدم وجود الأمان في ذلك الطريق وتعرضه لاعتداءات اللصوص وقطاع الطرق على القوافل التجارية والمسافرين[٨٦]، ومما زاد الأمر سوءا هو تصاعد الحروب والغزوات المستمرة في آسيا في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي – الثامن الهجري فأدت إلى انهيار الإمبراطورية المغولية في فارس وظهور تيمور لنك الذي قاد عدة حملات مدمرة في غرب آسيا [٨٧]، ثم الصراعات الدائرة بين الأمراء التركمان والمماليك أو تلك الحروب التي نشبت بين الصفوين والعثمانيين في العراق وأسيا الصغرى فامتنعت السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج العربي وهرمز والبصرة [٨٨].

كما أن ظهور العثمانيين في آسيا أثر بصورة كبيرة على هذه الطرق حيث اتجه العثمانيون إلى حرب التوسع على حساب جيرانهم من مسلمين ومسيحيين على السواء والتي استمرت حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي – القرن العاشر الهجري فأدى ذلك إلى سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م، وما تلاه من عمليات حربية في البر والبحر أدت إلى إرباك هذه الطرق المارة بأراضي الدولة البيزنطية ثم قيام السلطان العثماني بالقبض على الأجانب في المدينة مما أدى إلى رحيلهم عن القسطنطينية، وأغلقت الأسواق وفقدوا أحيائهم ونتيجة لذلك خشي الأجانب على أموالهم وأرواحهم فاضطروا إلى هجر الطرق التي هددتها الحروب وجعلتها غير آمنة ولم يجدوا أفضل من الطريق الذي يمر بالأراضي المصرية وهو بعيد عن مسرح تلك الأحداث الدامية [٨٩].

([٨٦]) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو (ترجمة وليم مارسدن، عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة، ١٩٩٦م) ، ج١، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

([٨٧]) جوزيف نسيم، دراسات في تاريخ الشرق والغرب (الإسكندرية، ١٩٨٣م)، ص ١٤٣ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٦.

([٨٨]) نعيم فهمى زكى، المرجع السابق،ص ١٢٤.

([٨٩]) نعيم فهمى، نفسه، ص ٣٧ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ١٦٥ – ١٧٠ ؛

Poston , The Cambridge economic history (Cambridge,1952),vol 2 , p. 99 – 102.

يضاف إلى ذلك نجاح جنوة في انتزاع ميناء فماجوستا القبرصي في سنة ١٣٧٤م والذي كان يعد أهم موانئ البحر المتوسط ازدهارا بالسلع الشرقية لقربه من مراكز التجارة في آسيا الصغرى، ولكنه فقد أهميته بعد احتلاله بسبب سياسة الاحتكار التي اتبعتها جنوة في المدينة حتى فضلت الأمم التجارية الاتجاه إلى أماكن أخرى مثل بيروت والإسكندرية مباشرة [٩٠]، كذلك لم تعد لموانئ أرمينية الصغرى فائدة بعد سقوطها في أيدي المماليك في سنة ١٣٧٥م بعد أن كانت تتحكم في الطرق التي تربط غرب آسيا بشرقها وبأوربا دون عبور الأراضي المصرية والشامية [٩١].

بالإضافة إلى عوامل خارجية أخرى سنوضحها كالآتي:

١- إن العامل الجغرافي للدول الأجنبية لعب دورا بارزا في توجه رعاياها نحو الشرق، نظرا لوجودها على البحر وارتباطها به حيث عاشوا على صيد الأسماك الذي احتاج إلى أسطول قوى مما جعلها تنشئ أساطيل متطورة في العدد والحجم والإمكانيات كما عملت على تحسين قوانينها التجارية وجعلتها أكثر تساهلا مع التجار لتنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية [٩٢].

٢- ازدياد محصول المعلومات الجغرافية عن الشرق من خلال الرحالة ومؤرخي الحروب الصليبية والتي أمدت الأجانب بمعلومات تاريخية هامة واقتصادية عن الشرق إلى جانب رغبة الأجانب في تسيير خطوط ملاحية شبه منتظمة مع بلاد الشرق الإسلامي[٩٣].

٣- جاذبية الموانئ المصرية للأمم التجارية الأجنبية حيث وجدت بها التوابل والسلع الشرقية الراقية في موانئ الشام ولكنها لا تصل إلا بعد رحلات برية طويلة

---

(٩٠) هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٧٨ ـ٢٧٩.

(91) Atiya (A. S) , the crusade in the middle ages , p. 470.

(٩٢) عفاف سيد صبره، المرجع السابق، ص ٨١ ؛ رشيد باقة، العلاقات التجارية بين فلورنسا والمماليك (ماجستير غير منشور، آداب، القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ٣٠ ـ ٣٥ ؛

Thompson, Economic and Social History in the middle ages (New York ,1959) , vol 1 , p. 430.

(93)Cambridge mediveal history , vol 5 , p. 327

ومكلفة وبالتالي يزداد ثمنها على التجار الأجانب في حين كان شراؤها ونقلها بأسعار أقل في الموانئ المصرية [٩٤].

٤- ثم وجود فترات سلمية وهدوء نسبى في حوض البحر المتوسط مما مكن الأجانب من مباشرة نشاطهم في البحر بأمان وطالما كان التعامل مع بلاد الشرق سيحقق لهم الفائدة والربح المادي كان الاستمرار في السفر والتنقل أمرا ضروريا رغم التنافس الشديد بين الدول الأجنبية للاستحواذ على تجارة الشرق[٩٥].

بالإضافة إلى اهتمام الأجانب ببعض المنتجات الشرقية والمصرية نظرا لأهميتها الاقتصادية والدينية والاجتماعية بالنسبة لهم والتي لا توجد إلا في المدن المصرية ومن هذه المنتجات : التوابل والفلفل حيث شغف الأجانب بشرائها بكميات كبيرة حتى أصبحت التوابل الغذاء الأساسي للأغنياء كما رغب فيها الأشراف ورجال الكنيسة والعامة فقد اعتادوا استخدامها في الأطعمة [٩٦]، ويرجع سبب ذلك إلى أن طعام الشعب الأجنبي في العصور الوسطى كان يبدوا سيئا ورديء المذاق وكذلك طعام الأغنياء، ولذا كان لا بد من إضافة التوابل والفلفل إلى الطعام لإكسابه نكهة ومذاقا جيدا متميزا، كما استخدم الفلفل لحفظ الطعام لفترة طويلة دون أن يفسد [٩٧]. أما البخور الشرقية فكان لا بد من وجودها في الكنائس والأديرة ولم يكن إحراق البخور شيئا ثانويا وإنما كان في نظر العامة من المسيحيين وكذلك رجال الكنيسة شيئًا أساسيًّا

---

(٩٤) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٤ ؛

Ziada ,M..M.,the foreign relation of Egypt in the 15 century (Liverpool,1930), p. 226.

(٩٥) هربرت فيشر، أوربا في العصور الوسطى (ترجمة السيد الباز العرينى، محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٦٢م)، ج٢، ص ٤٢٣ ؛ سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى (الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م)، ج٢، ص ٣٠٥.

(٩٦) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ١٩١ ؛ Henri Pirenne, op.cit , p. 143.

(٩٧) سعيد عاشور " مركز مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى "، (المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢١، ١٩٦٢م)، ص ٦٤ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ١٧١ ؛

Henri Pirenne , op. cit , p. 144.; Clive day , op. cit , p. 79.

وبخاصة في أوقات الصلاة والاحتفالات الدينية لأنه يضفي على الحفل جوا تقليديا خاصا يزيد من رهبة الموقف ويعلى من شأن الكنيسة ورجالها وطقوسها[٩٨]، وكذلك دهان البلسم (البلسان) الذي يستخرج من شجر يزرع في المطرية ويأمر السلطان باعتصاره في ميعاد محدد في السنة [٩٩]، ونظرا لأهميته فقد كان السلطان يقوم بتوزيعه بنفسه فيجعل منه جزءاً للمارستانات لعلاج القصور ويهادى بجزء آخر لملوك النصارى من الأحباش وملوك وأمراء الدول الأوربية، كما يمنحه للشخصيات الدينية الكبيرة المارة ببلاده والباقي يباع لحسابه بسعر غالٍ للأجانب نظرا لاستخدامه في عمليات التعميد عند النصارى [١٠٠]. بالإضافة إلى اللؤلؤ والأحجار الكريمة مثل الزبرجد والماس والزمرد والعقيق والذهب والفضة وكلها سلع غالية الثمن ويقبل عليها الطبقة الأرستقراطية الأوربية من الملوك والملكات والنبلاء والأمراء والأعيان، وهذه السلع كانت تأتى من بلاد متنوعة من الشرق ولكن الموانئ المصرية كانت هي المحتكر الوحيد لبيع هذه السلع وغيرها من السلع الشرقية الهامة.

أما بالنسبة لطرق التجارة في أفريقية فكان أهمها طريق البحر الأحمر حيث كان الطريق الأساسي لمنتجات الإمارات والمشيخات الإسلامية بالساحل الشرقي لإفريقية والحبشة والبجة وبعض منتجات السودان الأوسط والنوبة وكانت البضائع تفرغ في موانئ عيذاب وسواكن والطور ثم تنقل إلى أسوان أو قوص أو القاهرة، ومنها بالنيل إلى الإسكندرية والموانئ الشمالية [١٠١]، وقد تميز هذا الطريق بالأمن فهو بعيد عن ميادين الحروب بآسيا وكانت الملاحة فيه قاصرة على السفن الإسلامية وكذلك تميز برخص تكاليف نقل المتاجر به مما أدى إلى أن تكون أسعار السلع

---

(٩٨) سعيد عاشور، نفسه، ص ٦٣.

(٩٩) الأسعد مماتي الوزير الأيوبي، قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال، القاهرة، ١٩٤٣م)، ص ٢٧ ؛ إبراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى، مسالك الممالك (ليدن، ١٩٢٧م)، ص٥٤ ؛ ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص ١٣٣.

(١٠٠) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٢٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٩ ؛
Wright. G. , The early travelers in Palastain , (London , 1848) p. 12.

(١٠١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٢٧.

المنقولة أرخص ثمنا من مثيلاتها التي تنقل إلى بلاد الشام فضلا عن أن المسافة إلى موانئ التصدير أقصر وأسرع زمنا، ولهذا حرصت السلطات المملوكية على حماية هذا الطريق من اللصوص وقطاع الطرق والهجمات التي يشنها حكام بعض الدول الأفريقية وحكام بعض الجزر في البحر الأحمر الذين كانوا يقومون بالقرصنة في البحر الأحمر [١٠٢]. وبفضل هذه المزايا لطريق البحر الأحمر أصبحت مصر النافذة أو الواجهة التي تعرض من خلالها منتجات أفريقية وأسيا وأصبحت بمثابة القلب حيث أن معظم تجارة العالم تمر بها.

لا شك أن العلاقات السياسة بين القوى الدولية المعاصرة تعد من العوامل الخارجية للوجود الأجنبي في مصر. لقد تداخلت العلاقات السياسية بين الدول المعاصرة وفقا لظروف وأوضاع متعددة فبعد أن استطاع المماليك القضاء على الفتن الداخلية وكسر هيبة التتار أخذوا يلتفتون إلى الصليبين الذين كانوا لا يزالون يحتلون بعض مدن الساحل الشامي، فبدأ السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى الجهاد ضد الإمارات اللاتينية في شرق البحر المتوسط وحقق العديد من الانتصارات عليها وأخذت دولته في التوسع على حساب جيرانها من الصليبين [١٠٣]. ومهد الطريق أمام خلفه المنصور قلاوون لمواصلة المهمة فاستولى على طرابلس [١٠٤]، ولم يبق سوى عكا المعقل الأخير للآتين بالشرق الأدنى والتي استولى عليها الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م [١٠٥]، أما بقايا القلاع والحصون المبعثرة على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط فقد سقطت كلها في العام التالي وبذلك خلص الساحل

([١٠٢]) المقريزى، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٩٢٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٣٣٨ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٣، ص ٣١٨ – ٣٢٢.

([١٠٣]) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٤٣ – ١٤٥ ؛ بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تواريخ الزمان (تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٨م)، ج٢، ص ١٨ – ٣١، ٦٩ – ٧٩ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥٩٢ – ٥٩٣.

([١٠٤]) العيني، نفسه، ج٢، ص٣٨٠ ؛ النويرى، نهاية الإرب، ج٣١، ص٤٦.

([١٠٥]) النويرى، المصدر السابق، ج٣١، ص ١٩٥ – ١٩٨ ؛ الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أخبار المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٢م)، ج١، ص ١٣٧ – ١٣٩ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٧٦٢ – ٧٦٥.

الشامي من الوجود الصليبي الذي انتقل إلى جزيرة قبرص ورودس واتخذوهما حصنا لشن هجمات وغارات على الشواطئ المصرية والشامية وكانت آخر تلك الهجمات القوية إغارة القبارصة على الإسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م واحتلوها وعاثوا فيها فسادا ونكلوا بالمسلم والمسيحي على حد سواء ولم يسلم منهم حتى الأوربيون [١٠٦].

وفي نفس الوقت الذي كان فيه السلاطين المماليك يحاولون القضاء على الوجود الصليبي في الشام كانت الجمهوريات الإيطالية (جنوة – بيزا – البندقية) تتصارع في بلاد الشام وفي أوربا، وحاولت كل جمهورية منهم أن تكيل للأخرى الاتهامات والهجمات المستمرة للقضاء عليها والاستفادة من الظروف المحيطة بها، وذلك لأن هذه الجمهوريات كانت تمثل قوى دولية معاصرة من الناحية السياسية والتجارية ففي عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م هاجمت سفن جنوية البنادقة في عكا ودمرت برجهم في المدينة ثم هاجم البنادقة السفن الجنوية وأجبروا بعضها على مغادرة الشام إلى جنوة [١٠٧].

واستغل هذه الظروف السلطان المنصور قلاوون الذي آمن بحتمية منع أى تقارب صليبي جنوي مما أتاح له الفرصة لتدمير كل منهم على حدة وتحقيق آماله بإجلاء الصليبين عن بلاد الشام، وكذلك حلفائهم الجنوية وغيرهم من الإيطاليين المتحالفين معهم ففي عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م صادر سفينة جنوية في الإسكندرية ولم يطلق سراحها إلا بعد أن دفعت اثنى عشر ألف بيزنط ذهبا[١٠٨]، وفي نفس الوقت أعدت جنوة سفنا لمهاجمة سفن أعدائها البيازنة فضلا عن مهاجمتها للسفن المصرية، وكان هذا انتقاما لوقوع الأسرى الجنوية في أيدي السلطان قلاوون [١٠٩]، عندما هدأت

([١٠٦]) ابن حبيب، نفسه، ج٣ (تحقيق محمد محمد أمين، سعيد عاشور، الهيئة العامة، ١٩٨٦م)،ص ٢٨٩؛ النويرى السكندري، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام (تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، ١٩٧٣م)، ج١، ص ٣٣٥.

([١٠٧]) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٦٦ – ٦٧.

([١٠٨]) نفسه، ج٢، ص ٦٨.

([١٠٩]) نفسه، ص ٦٨ ؛ مصطفي حسن الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (الهيئة العامة، الإسكندرية، ١٩٨١م)، ص ٢٧١.

الأحوال أعلنت جنوة وقوفها على الحياد في الصراع الصليبي الإسلامي بدليل أنها لم تتحرك عندما سقطت اللاذقية رغم أهميتها التجارية بالنسبة لهم وفي نفس الوقت استمرت جنوة في مهاجمتها للبندقية وبيزا ودارت بينهم معارك ضارية في البحر والبر على امتداد الساحل الشامي وفي إيطاليا ذاتها وحقق فيها كل طرف من الأطراف عدة انتصارات على الطرف الآخر.

وتطورت الأحداث سريعًا حيث سقطت طرابلس في أيدي الجنوية ولا جدال أن القوى الإيطالية الأخرى قد غضبت بسبب سيطرة الجنوية على طرابلس فأرسلت البندقية سفارة إلى السلطان قلاوون تحذره من خطورة سيطرة الجنوية على تلك المدينة لما في ذلك من تهديد لتجارة مصر وتشككه في حسن نوايا الجنوية، كما كان من السلطان المنصور قلاوون إلا أن اتخذ ذلك ذريعة لتحقيق أهدافه [١١٠].

وبعد سقوط طرابلس استولى القبطان الجنوى بنديتوزكاريا بالاتفاق مع قنصل كافا على إحدى السفن التجارية المصرية القادمة من الإسكندرية بالقرب من ساحل آسيا الصغرى في خليج أضاليا، وذلك انتقاما لسقوط طرابلس في أيدي المماليك ولكن سرعان ما أرسل حاكم جنوة اعتذارا للسلطان عما حدث وعقد معه معاهدة سلام[١١١]، أتاحت الفرصة لجنوة لتوجيه ضربة قوية لمصالح بني جلدتهم من اللاتين وهم البنادقة والبيازنة حيث كان الصراع بينهم على أشده واستطاع الجنوية هزيمة بيزا وتدمير مينائها، ومن خلال المعاهدة حققت جنوة مصالح تجارية عظيمة مع مصر أفضل من الامتيازات التي حصل عليها البنادقة، ولم يبق هناك سوى البندقية وجنوة، وحفاظا على مصالحها الاقتصادية وقفت جنوة موقفا سلبيا من جهود البابوية والبنادقة وغيرهم من اللاتين لإعداد حملة للدفاع عن مدينة عكا بعد سقوطها على أيدي الأشرف خليل

([١١٠]) العينى، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٨٠ – ٣٨٢ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٣.

([١١١]) محيى الدين عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م)، ص١٦٥.

بن قلاوون الذي صدق على المعاهدة السابقة[١١٢]، واستقرت العلاقات السياسية بين القوى المملوكية والقوى الأوربية إلى حد ما، ونعم الشرق والغرب بفترة هدوء نسبى إلا من بعض هجمات القراصنة من جزيرة قبرص فحين دعا بطرس لوزنجيان ملك قبرص اللاتيني ملوك وأمراء الغرب للمشاركة في حملته على مصر، وعدت جنوة والبندقية بالمشاركة في تلك الحملة للحصول على امتيازات جديدة من الملك القبرصي في الإسكندرية بعد انتصاره وخاصة بعد سقوط عكا أدركوا أهمية قبرص وموانيها لتجارتهم مع الشرق، ولكن فشل حملة بطرس عرض البنادقة والجنوية لانتقام مضاعف من السلطات المملوكية إذ حرم عليهم السلطان المملوكي دخول البلاد والمتاجرة فيها فضلا عن أن السلطان الأشرف شعبان أمر بالقبض عليهم [١١٣]. ولما كانت مصر تسيطر على أحد أهم طريقين تجاريين بين الشرق والغرب بينما سيطر العراق على الطريق الثاني فقد تأثر اقتصاد الجمهوريات الإيطالية وأوربا تأثرا بالغا بوقف التجارة مع المسلمين في الشرق أو الغرب[١١٤]، ولذا سعت البندقية وجنوة لعقد صلحا بين قبرص ومصر وبالفعل استطاعا تحقيق ذلك بعد محاولات عديدة وعادت العلاقات الودية بين مصر والبندقية من ناحية وبين مصر وجنوة من ناحية أخرى. ولكن سرعان ما عادت العلاقات العدائية بين جنوة والبندقية فقد استغلتا الجمهوريتان اضطراب الأحوال في قبرص فتدخلتا في شئونها الداخلية حتى فرضتا عليها احتلال جنويا – بندقيا [١١٥]. ودب الصراع الطويل بين الطرفين حتى خضعت جنوة وتركت الساحة للبندقية.

وإذا انتقلنا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية نجد بها ثلاث دويلات هي البرتغال ومملكة قشتالة وأراجون وقطالونيا ومملكة غرناطة الإسلامية، فقد كانت تلك الممالك

---

(١١٢) نفسه، ص ١٦٨.

(١١٣) المقريزي، السلوك، ج٣ ق١، ص ١٠٧.

(١١٤) القلقشندى، صبح الأعشى،ج ٨،ص ١٠٧ – ١١٥؛النويرى السكندرى،المصدر السابق،ج٥، ص ٢٣٠.

(115)Hill (G) , A history of Cyprus (London , 1970 – 1972) , vol 2 , p 431.

المسيحية مشغولة بحروبها ومشاكلها الداخلية مع إنجلترا وفرنسا من ناحية ومن ناحية أخرى تمكنت من إحراز انتصارات متتالية على مسلمي الأندلس الذين سببوا لها قلقا مستمرا إلى أن تم لها إجلاؤهم عن شبه الجزيرة في بداية العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي / آخر القرن التاسع الهجري [١١٦]، ثم استقرت الأحوال في أسبانيا واستطاعت النهوض والالتفات إلى العالم الخارجي بعد عقد معاهدة الميثرا في عام ١٢٤٤م بين مملكتي قشتالة وأراجون التي حددت حدود اتساع كلا المملكتين [١١٧]. فحاولت أن تحقق نوعا من التوازن بين القوى الدولية المعاصرة فبدأت بعقد معاهدة تجارية مع الظاهر بيبرس [١١٨]، ثم تلاها سفارة أراجونية ودية إلى مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل فعقدت معهما معاهدة سياسية دفاعية مشتركة [١١٩].

ويبدو أن أراجون كانت في أشد الحاجة لهذه الاتفاقية المشتركة حيث إنها قد دخلت في صراع مع فرنسا والبابوية بسبب انضمام جزيرة صقلية إليها أما المنصور قلاوون فكان يناضل ضد الصليبيين ويحتاج إلى مساندة خارجية فوافق على هذه المعاهدة وانضمت إليهما مملكتي قشتالة ولشبونة فعقدوا جميعا حلفا ثلاثيا عسكريا.[١٢٠] واستمرت أسبانيا المسيحية في محاولات لتحقيق توازن سياسى في البحر المتوسط، وثبتت أركانها حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي/ القرن الثامن الهجري.

([١١٦]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٨، ص ١٠٧ –١١٥.

([١١٧]) محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك (دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ٨٧ ؛

Lane – poole (s) , History of Egypt in the middle ages (London ,1913) , p. 266 ; Encyclopedia of students (U.S. A , 1996) , vol 1 , p. 35 – 37

([١١٨]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م)، ص ٣٣٧.

([١١٩]) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٥٦، ١٥٩ – ١٦٠.

([١٢٠]) محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية (القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ١٧٠ – ١٧٢ ؛ محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكى (الهيئة العامة، ١٩٩٩م)، ص ١٢٥.

كانت البابوية في أوربا تمثل قوى لا يستهان بها في فترة من فترات العصور الوسطى، ولكن هذه القوى بدأت تضعف سيطرتها على أوربا، حيث كان سقوط عكا في أيدي المسلمين ضربة قاضية بالنسبة للبابوية فأصدر البابا نيقولا الرابع منشورا يحرم على التجار الغربيين التعامل مع البلاد الخاضعة للمماليك و إلا أنزل بهم عقوبة الحرمان الكنسي واعتبروا خونة، ويفقدون حقوقهم المدنية، ولا يحق لهم أى ميراث [١٢١]، ثم حددت مدة التحريم بعشر سنوات ثم أصدر البابا بونيفاس الثامن قرارا يسرى لمدة عشرة أعوام أخرى يحرم خلالها إرسال المواد الإستراتيجية والسلع الغذائية إلى دولة المماليك ونظرًا لفتور الروح الصليبية في غرب أوربا وخوفا من إفلات الزمام من يد البابوية أصدر البابا قرارا يبيح لمن صدر ضده قرار الحرمان الكنسي أن يشترى الغفران بدفع مبلغ من المال [١٢٢]، وبذلك تدفقت على خزانة البابوية أموالا طائلة من مخالفي القرار فقد حاولت البندقية تغيير الاتفاق وقد نجحت بأموالها التي بذلتها للحصول على تراخيص السفر والقضاء على الصعوبات التي وضعتها الكنيسة [١٢٣]، وعلى أثر الخلافات بين المستعمرات الجنوية في البسفور والبحر الأسود وبين الإمبراطورية البيزنطية أصبحت المياه اليونانية مغلقة في وجه الجنوية فاضطرت الحكومة الجنوية إلى الإلحاح على البابا الذي منحها ترخيصا بالتوقف على الساحل الشمالي لسوريا ومنح التراخيص لمدة سنيتين فقط [١٢٤].

وحقيقة قد استمرت سياسة البابوية حيال التجار الأوربيين غير ثابتة على مبدأ واحد فهي تارة متشددة وتارة أخرى مرنة فعند غزو قبرص للإسكندرية تشددت البابوية في قراراتها، و أحكمت الخناق على الأوربيين حتى اضطروا إلى الرضوخ لأوامرها ولكن سرعان ما عادت الأمور كما كانت عليه واستطاعت الدول التجارية الحصول على تراخيص جديدة لاستئناف التجارة مع الشرق في مقابل أموال هائلة

([١٢١]) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ عزيز سوريال، المرجع السابق، ص ١٦١.

([122])Deeping , Histoire du commerce enter le levant et le Europe (paris ,1830) , tome. 2 , p. 176.

([١٢٣]) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٧٦.

([١٢٤]) نفسه، ج٢، ص ٢٨٠.

تكدست في خزانة الكنيسة واستمر الوضع هكذا حتى تلاشى تأثير البابوية في أوربا خلال القرن الخامس عشر [١٢٥]، في حين كانت ترى البابوية في إصدار هذه القرارات فرصة لاستعادة هيبتها بين المسيحيين الغربيين، ومع ذلك لم تسترد قوتها كما رأت في صدور التراخيص مصدرا هاما للحصول على الأموال لإرسال حملات صليبية إلى الشرق ولكنها انشغلت في الصراع الذي احتدم داخل القارة الأوربية بين بابوات روما وبابوات أفينون، وانقلبت الصورة تماما فبعد أن كانت البابوية تسيطر على العالم المسيحي الغربي بما فيه الإمبراطورية أصبحت في أخريات العصور الوسيط أداة في يد الحكام لذلك لم تنفذ قراراتها، ولم تحترم آراؤها إلا إذا كانت فيها مصلحة للشعوب.

وليس أدل على ذلك من وثيقة جنوية مؤرخة في ١٤ أكتوبر سنة ١٣٠٤م – ولم تكن قد انتهت مدة العشر سنوات – ثبت وجود قنصل جنوي مقيم بالإسكندرية بالإضافة إلى وجود فندق للجنوية مفتوحا للوافدين الذين جاءوا سرا إلى مصر بدون علم البابا [١٢٦]، كما أكد الرحالة لادولف الذي زار الإسكندرية في عام ١٣٣٩-١٤٤١م وجود كثير من التجار البنادقة في المدينة وهم يمارسون نشاطهم الاقتصادي، ويتمتعون بحريتهم الدينية في الكنيسة المرقصية.[١٢٧] أما الوثائق الخاصة بجمهورية بيزا بين عامي ١٣٠٥م، ١٣٢٢م تزودنا بمعلومات عن توافد جالية بيزية في الإسكندرية ووجود قنصلية بيزية أيضا فضلا على أنه كان مفروضا على القنصل أن يدفع لخزينة كاتدرائية بيزا إيرادات فندق الجالية البيزية [١٢٨]، أما أراجون فقد أصدرت قرارا يحرم على رعاياها التجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكي وفقا لقرارات البابوية ولكن توتر العلاقات بين البابوية وملك أراجون وقشتالة من ناحية وقيام بعض التجار الأراجونيين بصورة غير رسمية وفردية بالإيجار إلى مصر من ناحية أخرى. اضطر ملك أراجون لعقد معاهدة تجارية وعسكرية مع السلطان

([125])Deeping , op. cit , tome 2 , p 196.

([١٢٦]) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

([١٢٧]) عفاف سيد صبره، المرجع السابق، ص ١٠٧ ؛ عادل زيتون، المرجع السابق، ص ٢٤٣.

([١٢٨]) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٦٨.

المملوكي ففي عام ١٣٠٣م أرسل سفيرا إلى الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه بأن يرد له اثنى عشر ألف بيزنطة أخذت من تجار أراجون في جمرك الإسكندرية [١٢٩]، مما يدل على موافقة الملك على وجود رعاياه في أملاك الدولة المملوكية كما أثبتت المصادر المعاصرة بوجود قنصلية قطالونية في الإسكندرية وفندق قطالوني يستقبل من وقت لأخر تجارا و سفراء من برشلونة[١٣٠]، وهكذا كانت الدول الأوربية تتحايل على القرارات البابوية وتستغل حاجتها إلى المال وتحصل على تراخيص خاصة بالإضافة إلى انشغال الغرب المسيحي والبابوية بتوحيد جهودهما في العصر الوسيط المتأخر إلى محاربة الأتراك في أوربا، وبذلك لم يعد ممكنا أمام الدول الأوربية السفر برا أو بحرا إلى آسيا وأفريقيا إلا عن طريق أملاك وأراضى الدول المملوكية.

العوامل العسكرية :

خاضت الدولة المملوكية حروب ومعارك عديدة في جبهات مختلفة، ولذلك كثر عدد الأسرى الأجانب، فعندما استطاعت القوات المغولية اقتحام بغداد ودمشق اضطرت الدولة المملوكية الناشئة مواجهة هذا الغزو في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وأسرت عدداً كبيراً من الجيش المغولي[١٣١]، واستمرت المناوشات بين الطرفين ففي عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م أغار المغول على بلاد الشام وتلاقوا مع القوات المملوكية التي أسرت منهم الكثير وعادت بهم إلى القاهرة [١٣٢]، وفي عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م خرج الظاهر بيبرس مع قواته لتفقد أحوال الشام فوجد جماعة من

---

(١٢٩) Atiya (A. S) , Egypt and Aragon (Leipzing , 1938) , p. 20.

(١٣٠) هايد، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٦٣.

(١٣١) بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (تحقيق زبيدة عطا، الرياض، ١٩٨٩م)، ج٩، ص ٦٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٧٩.

(١٣٢) أبو الفلاح عبد الحى عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة، ١١٣٥هـ) ، ج٥، ص ٢٩٦ ؛ أبو محمد عبد الله اليافعي، مرآة الجنان في عبرة اليقظان (حيدر آباد، ١٣٣٨هـ)، ج٤، ص ١٥٠ ؛ الحافظ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام (تحقيق حسن إسماعيل، محمود الأرناءوط، بيروت، ١٩٩٩م)، ج٢، ١٧٩.

المغول تحاول الإغارة على قلعة إلبيرة فأسر منهم حوالي مائتي مغولي[١٣٣]، وفي عام ٧١٢هـ/١٣١٢م أغار المغول مرة أخرى على قلعة الرحبة فأمر السلطان الناصر محمد نوابه في الشام بتجهيز القوات لملاقاة المغول وأسرهم [١٣٤]. وعلى هذا النحو دخل الأسرى المغول إلى الدولة المملوكية حتى استقرت الأوضاع وهدأت الأحوال بين الطرفين بعقد الصلح بين الناصر محمد بن قلاوون والخان المغولي أبو سعيد في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م[١٣٥].

على الجبهة الأخرى حارب المماليك الصليبيون حيث ظهرت قوتهم أثناء حملة لويس التاسع على مصر تلك الحملة التي سميت بالحملة السابعة وفيها انهزم الملك لويس ملك فرنسا وجنوده واستسلموا للقوات المصرية التي أسرتهم، ولكثرة عددهم أضطر توران شاه إلى قتل الكثير منهم في جماعات متتالية [١٣٦]، وتوالت الجهود العسكرية لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام ففي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م حاول الظاهر بيبرس الاستيلاء على إمارة أنطاكية إلا أنه لم يستطع وعاد إلى القاهرة ومعه ثلاثمائة أسير صليبى [١٣٧]، ثم أعاد الكرة عدة مرات حتى استطاع الاستيلاء عليها في عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م وعادت القوات المملوكية بأعداد كبيرة من الأسرى والجواري والأموال[١٣٨]، وتوالت الانتصارات وتوال سقوط الإمارات الصليبية على يد السلطان المنصور قلاوون الذي فتح حصن المرقب في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م [١٣٩]، ثم أرسل قواته عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م لفتح إمارة طرابلس التي حاول أهلها الهرب عن طريق البحر فنجا القليل منهم وقتل أغلبهم وسبيت نساؤهم وصغارهم وعادت الحملة بالكثير

([١٣٣]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٦٠٤ ـ٦٠٥.

([١٣٤]) نفسه، ج٢ ق١، ص ١١٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

([١٣٥]) ابن دقماق، المصدر السابق، ص ٣٥٥.

([١٣٦]) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص ٣٥٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٦٦.

([١٣٧]) ابن الفرات، المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٤.

([١٣٨]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.

([١٣٩]) الملك المؤيد عماد إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر(القاهرة، ١٣٢٥هـ)،ج٤، ص ٢١.

من الأسرى [١٤٠]، واستكمل الأشرف خليل بن قلاوون مطاردة الصليبين وذلك بفتح عكا في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م وتمكن من أسر أعداد كبيرة من الأسرى لا يمكن حصرها أو وصفها[١٤١]، ثم توجهت بقايا الصليبين إلى جزيرتى قبرص ورودس فأصبحتا معقلا وحصنا لشن الغارات على السواحل المصرية والسورية مما دفع السلطان برسباى لإرسال ثلاث حملات بحرية متتالية لتأديب قبرص وقراصنتها وبالفعل وقعت قبرص في يديه وأسر من أهلها عددا لا يحصى وكان منهم الملك القبرصي جانوس الأول [١٤٢]. أما جزيرة رودس فقد أرسل إليها السلطان جقمق ثلاث حملات أخرى ورغم فشلها في إخضاع الجزيرة للسيطرة المملوكية إلا أن القوات المملوكية عادت بالأسرى الروادسة من النساء والشيوخ وبنات الملك الرودس [١٤٣].

ومن الجدير بالذكر أن مملكة أرمينية الصغرى التي غزاها الظاهر بيبرس عام ٦٦٤هـ/١٦٦٢م بسبب تعاونها مع المغول تارة ومع الصليبين تارة أخرى لم تع الدرس جيدا ورغم أنها تعهدت بعدم القيام بأية تحصينات للقلاع والحصون على حدودها [١٤٤]، إلا أن الملك الأرمني نقض العهد واعترض التجار المسلمين المارين ببلاده فأرسل الظاهر بيبرس قواته عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م إلى عاصمتها سيس فدمرتها وغنمت الكثير من الأسرى الأرمن[١٤٥]، ولم تكن هذه الحملة حدًّا فاصلًا للغدر

([١٤٠]) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٨١ ؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص ١٢٢ – ١٢٤ ؛ أبو الفدا، نفسه، ج٤، ص ٢٣.

([١٤١]) أبو الفدا، نفسه، ص ٢٤ –٢٥ ؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٠٨ –٣١٠

([١٤٢]) محمد بن منكلى، الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في القتال في البحر (دكتوراه غير منشورة، آداب، القاهرة، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم، ١٩٧٤م)، ص ٦٦ – ٧١ ؛ عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب (بيروت، ١٩٦٦م)، ص ٢١٠ – ٢١٢.

([١٤٣]) محمد مصطفي زيادة، " المحاولات الحربية لاستيلاء على رودس "، (ترجمة جمال الدين الشيال، مجلة الجيش، ١٩٤٦م)، ص ١٩٨ –٢٠٤.

([١٤٤]) المقريزى، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٥٦٨ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٢٧ ؛ فؤاد حسن حافظ، تاريخ الشعب الأرمنى (القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ١٦٤.

([١٤٥]) ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥٥ ؛ ابن عبد الظاهر، نفسه، ص ٤٣٢ ؛ ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٨.

الأرمني مما جعل الناصر محمد بن قلاوون يرسل إليها قواته عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م فدخلتها وخربتها وعادت بأعداد ضخمة من الأسرى الأرمن [١٤٦]، وما لبث أن أعاد الناصر محمد الكرة فأخضع مملكة أرمينية الصغرى للسيادة المصرية عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م [١٤٧].

هذا وقد شهد المجتمع المصري دخول الأسرى النوبيين بأعداد وفيرة نتيجة لإغارة ملوك النوبة على الحدود الجنوبية مما دفع السلاطين المماليك لإرسال حملات عسكرية إلى داخل النوبة لتأديب ملكها مثلما حدث عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م حينما استغل الظاهر بيبرس فرصة استنجاد ملكها ويدعى شكنده به لإعادته إلى العرش فأرسل حملة عسكرية حققت الهدف وعادت بالأسرى [١٤٨]، ولم يجرؤ ملك النوبة فيما بعد على الإغارة على الحدود الجنوبية المصرية لأن السلاطين المماليك لم يتركوا لهم الفرصة لذلك وليس أدل على ذلك مما فعله السلطان المنصور قلاوون الذي أرسل حملة تأديبية إلى النوبة بسبب شكوى ملك الأبواب المجاورة لها في عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م وعادت الحملة بأعداد ضخمة من الرقيق والأسرى والسبي النوبي إلى القاهرة[١٤٩].

العوامل الاجتماعية :

يضطر الإنسان في أوقات معينة إلى الهجرة لبلد ما لطلب الأمان والاستقرار

([١٤٦]) ابن أبى الفضائل، نفسه، ج٣، ص ٦١٦، ابن أيبك، الدرر الفاخرة في سيرة الملك الناصر (ج٩ من كنز الدرر، تحقيق هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠م)، ص ١٣١.

([١٤٧]) الحافظ بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م)، ج١، ص ٩٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٦٦ ؛ محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون (دار الفكر العربي، ١٩٦٠م)، ص ٣١.

([١٤٨]) محمد بن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧، تاريخ)، ورقة ٢٨٣ – ٢٨٤ ؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥ ، ص ٨٦٢.

([١٤٩]) ابن بهادر، نفسه، ورقة ٢٨٦ ؛ ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ)،ج١، ص ٨١ ؛ ابن إياس،المصدر السابق، ج١ ق١، ص ٣٥٩.

لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نتيجة لحدوث كوارث طبيعية فيرغب في البحث عن مكان مناسب للإقامة فيه وخاصة إذا كانت الدولة المضيفة ترحب بالمهاجرين وهذا ما حدث عندما اعتنق بركة خان - زعيم القبيلة الذهبية المغولية – الإسلام وأظهر تسامحا تجاه المسلمين المارين ببلاده وأرسل السفارات والبعثات للظاهر بيبرس يخبره بإسلامه والرغبة في التحالف معه [١٥٠].

ويبدو أن الظاهر بيبرس كان في حاجة إلى هذا التحالف للتصدي لهجمات المغول فرحب به بل زاد من أواصر الصداقة بزواجه من ابنته، وأمر له بالدعاء على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة [١٥١].

كان هذا التحالف سببا في هجرة العديد من التتار المستأمنين الذين كانوا ينشدون الاستقرار بعيدا عن الخلافات السياسية بين خاقانات المغول ففي عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وصلت طائفة صغيرة من التتار تطلب الأمان والاستقرار في مصر [١٥٢]، وفي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م وصلت إلى الحدود جماعة من التتار المستأمنين أرادوا القدوم إلى الأبواب الشريفة وكانوا جنودا في جيش بركة خان، وقد خرجوا لمساعدة هولاكو وإذا بالخلاف ينشب بين هولاكو وبركة خان الذي أمرهم بالتوجه إلى الديار المصرية وكان عددهم نحو مائتي فارس فسمح لهم الظاهر بيبرس بالدخول وإكرامهم والإحسان إليهم [١٥٣]، ومن المرجح أن أخبار ترحيب السلطان المملوكي بالوفود المغولية قد وصلت إلى مسامع إخوانهم مما شجعهم على الرحيل إلى مصر فجاءت جماعة أخرى في نفس العام وكانوا حوالي ألف وثلاثمائة فارس فوصلوا إلى

([١٥٠]) العينى، المصدر السابق، ج١ ص ٣٦٠ ؛ بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ص ٩٩.

([١٥١]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٩٩، ١٦٧ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢١٤ – ٢١٨ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ق ٢، ص ٤٧٧، ٤٧٩ –٤٨٠، ٤٩٥.

([١٥٢]) بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية في الدولة التركية (تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م)، ص ٧.

([١٥٣]) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٣٧ ؛ ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج١، ص١٠٠ ؛

Syedah Fatin Sedeque , Baybars 1 of Egypt ,(Oxford , 1956) , p. 50 – 51

القاهرة في أواخر عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م [١٥٤]، ثم وصلت طائفة أخرى احتفل بها السلطان ثم طائفة ثالثة فعرض عليهم الإسلام فأسلموا جميعا.[١٥٥]

ورغم الترحيب الذي أبداه الظاهر بيبرس بالوفود المغولية إلا أنه في البداية لم يكن مطمئنا لهم بدليل ما ذكره عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م عندما قدمت طائفة تترية أخرى مستأمنة خشي أن يكون وراءها شيء فجمع الأمراء وقال لهم : " أخشى أن يكون في مجيئهم من كل ناحية ما يستراب منه والرأي الراجح أن نخرج إليهم فإن كانوا طائعين عاملناهم بالحسنى و إلا فنكون على أهبة الاستعداد " [١٥٦]، وعلى هذا النحو توافدت جماعات مغولية أخرى ففي عام ٦٨٠هـ/١٢٧٩م وكانوا حوالي مائتي فارس بنسائهم وأولادهم [١٥٧]، وفي العام التالي وصلت طائفة أخرى أكثر عددا [١٥٨]، وفي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م قدمت طائفة أخرى مكونة من ثلاثمائة فارس بأسرهم [١٥٩].

ومن الملاحظ أن هذه الأعداد التي وصلت كانت بسيطة بالمقارنة بالوافدين في عهد العادل زين الدين كتبغا عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م حيث قدم البريد إلى القاهرة بوصول طائفة من المغول يقال لهم الأويراتية ومقدمهم طرغاى وبلغ عددهم حوالي ثمانية عشر ألف بيت [١٦٠]، وكان سبب قدومهم هو فرارهم من غازان ملك التتار

([١٥٤]) ابن بهادر، المصدر السابق، ورقة ٢٩٧، ويذكر أن عددهم كان حوالى ألف نفس ويؤيده بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ١٠١ ؛ مختار الأخبار في تاريخ الدولة الأيوبية والمملوكية (تحقيق صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م)، ص ٢٤ ؛ في حين يرى المقريزى أن عددهم ١٣٠٠ فارس، السلوك، ج١ ق٢، ص ٥٠٠.

([١٥٥]) المقريزى، السلوك، ج١ق٢، ص ٥٠١.

([١٥٦]) نفسه، ص ٥١٥.

([١٥٧]) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٢٤٨.

([١٥٨]) ابن الفرات، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٥٠.

([١٥٩]) نفسه، ج٨، ص ٢٠٢.

([١٦٠]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٣، ص ٨١٢ ؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٨، ص ٦٠ ـ٦١؛ مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك (تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م)، ص ٣٨ ؛ أما بعض المصادر تذكر أن عددهم كان عشرة آلاف بيت فقط، انظر ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦١ ؛ أبو الفدا، المصدر السابق،ج٤، ص ٣٤.

لأنهم قتلوا عمه فخافوا منه فأسرعوا بالهرب إلى مصر يطلبون الحماية [١٦١]، وقد أحسن إليهم السلطان زين الدين كتبغا وجعلهم أعوانا له ضد منافسيه وولاهم مناصب عليا في الدولة مما أثار حقد وغيرة الأمراء ثم إنهم ظلوا على وثنيتهم وتجاهروا بالأكل والشراب في نهار رمضان مما أثار حفيظة الشعب المصرى، وفي النهاية كانوا سببا في عزله من السلطة حينما ثار عليه الأمراء المماليك بسبب تفضيله لهم على حساب مماليكه القدامى [١٦٢].

وفي عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م حضرت طائفة أخرى وعلى رأسها الأمير بدر الدين جنكلى بن شمس الدين البابا أحد مقدمي التتار ومعه عشرة من أهله وأتباعه فكتب الناصر إلى نائب الشام بإكرامهم والإحسان إليهم حتى وصلوا إلى القاهرة وأنزلهم بقلعة الجبل [١٦٣]، وفي عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م قدمت جماعة أخرى نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم وفيهم عدة من أقارب غازان ومنهم أربعة سلحدارية فأحسن إليهم الناصر محمد وأكرمهم [١٦٤]، وكان سبب هجرتهم هو خوفهم من بطش أخو غازان حيث اتفقوا مع زوجته على قتله ونفذوا ما اتفقوا عليه ثم هربوا إلى الديار المصرية [١٦٥]، ورغم قلة أعداد الوافدية المغولية خلال تلك الفترة إلا أنهم توافدوا بكثرة فيما بعد، كما حدث في عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م حينما قدمت طائفة كبيرة العدد إلى بلاد الشام نتيجة لانتشار القحط الشديد في بلادهم فارتحلوا إلى مصر طالبين الأمان والطعام [١٦٦]، ثم جاءت هجرة مغولية أخرى في عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م بسبب الطاعون الذي انتشر في الشرق الأقصى فأذن لهم الناصر محمد بالإقامة في بلاد الشام ثم وصل منهم إلى القاهرة وكان عددهم حوالي مائتي فارس فاختار منهم ثمانين

([١٦١]) بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية، ص ١٤٦؛ مختار الأخبار، ص ٢٠٤.

([١٦٢]) بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية، ص ١٤٦ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ق ٣، ص ٨١٣ – ٨١٤.

([١٦٣]) المقريزي، السلوك، ج١ق٣ ، ص ٥٩٠ ؛ ابن أبى الفضائل، المصدر السابق، ج٣، ص ٦٠٣.

([١٦٤]) المقريزي، نفسه، ج٢ ق١، ص ٥ ؛ ابن أبى الفضائل، نفسه، ص ٦١٤.

([١٦٥]) ابن أبى الفضائل، نفسه، ص ٥٥٩ – ٦٠٠.

([١٦٦]) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص ٢٥٤.

فارسا لنفسه ووزع الباقي على الأمراء وجعل بعضهم من جملة مماليكه [١٦٧].

كما كانت لسياسة التسامح مع التي تبعها السلاطين المماليك مع المغول أكبر الأثر في تشجيع المغول للهجرة إلى مصر، وهذه السياسة كان هدفها الأساسي هو التغلغل في صفوف العدو، واستمالة العناصر المغولية إليه ضد القبائل المغولية الأخرى وعلى رأسهم الأمير شمس الدين بهادر الذي وفد إلى مصر في عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م وكان هاربا من مغول فارس وكاتب السلطان الظاهر بيبرس مناصحًا له وأطلعه على أحوال مغول فارس فأحسن إليه وأعطاه عشرين فارسا [١٦٨].

ونخلص مما سبق أن الجاليات الأجنبية كانت موجودة في المجتمع المصري قبل العصر المملوكي بأعداد وفيرة ولكنها زادت من حيث العدد والجنسية نظرا لظروف وعوامل متعددة، منها ما يتعلق بالظروف الداخلية للدولة، وحسن معاملة السلطات للأجانب الوافدين، واستقرار الأمن الداخلي، والمميزات التي تمتعت بها المدن المصرية وسيطرتها على طرق التجارة في الشرق بالإضافة إلى عوامل خارجية تمثلت في طبيعة العلاقات بين القوى السياسية المعاصرة، واضطراب الأحوال في الشرق والغرب نتيجة للحروب والمعارك الضارية وتوسعات بعض الدول الكبرى، مما أدى إلى تعطل وتدهور الطرق القديمة، وكذلك ضعف موقف البابوية وفشلها في السيطرة على أوربا، وعوامل اجتماعية قوية ساهمت في وفود العديد من الأجانب إلى مصر بأعداد وفيرة وجنسيات مختلفة فوجدوا في مصر الملاذ والملجأ الآمن.

([١٦٧]) المقريزي، نفسه، ج٢ ق٢، ص ٥١٥ ؛

David Aylon , Studies on the Mamulk of Egypt (London ,1977), vol 2 ,p.101.

([١٦٨]) بيبرس الدوادار، التحفة المملوكية، ص ٧٨.